يتحقق. فلقد أصبح واضحاً له بأنه لامفرَّ من قتال أهل مكة وهزيمتهم كي يذعنوا للإسلام. ومثل هذه الاستراتيجية النشطة كانت تستلزم من الرسول أن يوطد أركان قيادته دون منافس في قاعدة خارج مكة، ويعقد اتفاقات مع القبائل التي تقيم على طول طرق التجارة المكية. وبعد الهجرة، لم يضيع الرسول وقتاً في تجسيد هذه الاستراتيجية.

ولدى وصوله إلى المدينة، لم يصبح الرسول زعيم البلد بلا منازع. ودستور المدينة (عهد الأمة) حدَّد أن يكون محمد رئيس المهاجرين، الذين يعتبرون قبيلة، كاملة الحقوق والواجبات، أسوة بالقبائل الأخرى في المدينة. والامتياز الوحيد الذي تمتع به على سواه هو أن تحال الخلافات بين القبائل إليه للفصل فيها[٨]. أما بالنسبة إلى حريته في العمل ضد المكيين، فقد كانت محددة بحقيقة أن المدينيين قد تعهدوا بحمايته من أعدائه، لكنهم لم يأخذوا على عاتقهم أية التزامات بخوض معارك هجومية إلى جانبه[٩]. ولذلك، كان على الرسول أن يسلك ببراعة لإدخال سكان المدينة في حرب مفتوحة مع أهل مكة. وقد أثارت خطواته التكتيكية خلافاً حادّاً في المدينة، بين أنصاره المخلصين وخصومه، الذين يشار إليهم في الروايات باسم المنافقين[١٠]. ولكن الاختبار الأكثر اشكالية للرسول كان الصراع ضد المكيين -الذي في سياقه، ونتيجة له، تغلب على الصعاب الأخرى.

***

إن استسلام مكة للرسول، وبالتالي فتحها، قد تحقق على أربع مراحل واضحة المعالم. الأولى تميزت بعمليات إغارة خاطفة، شبيهة